طاقات لا نحطّمها..ولكن نوجّهها

في الإنسان طاقات كثيرة متنوعة. يبدو بعضها خاطئاً!

ولكن الله لم يخلق في الإنسان شيئاً خاطئاً. إنما إن وُجد خطأ. يكون ذلك في سوء الاستخدام. أو استخدامه في غير ما أراده الله له. كل الطاقات البشرية. هي إذن للخير. إذا ما استخدمت بطريقة خيرة...

وسنحاول أن نطبق هذه القاعدة علي عدة أمور: مثل العناد. والغضب. ومحبة الذات. وبعض المواهب العقلية.

* * *

*** نتناول العناد مثلاً: هل هو خطيئة؟ أم هو طاقة؟**

أم هو في أصله طاقة. قد تنحرف فتصير خطيئة...

نسمي العناد خطيئة. حينما ينحرف الإنسان عن الخير. ويصرّ علي موقفه الخاطيء. في عناد لا يقبل التحول عن سوء مسلكه أو سوء فكره. ولا يقبل نصحاً ولا إرشاداً. بل لا يقبل كل لون من التفاهم. بعقل مغلق تماماً عن إصلاح مسيرته. حتي لو صدرت النصيحة له من صديق مخلص. أو من أب روحي. أو من مرشد موثوق به. أو من رئيس حكيم عادل.. مهما كان الحق واضحاً.

مثل هذا العناد يكون تصلباً في الفكر والإرادة

وقد يكون صادراً عن كبرياء. وعن اعتداد بالنفس في غير موضعه. وهو بلا شك خطأ يحتاج إلي علاج أو إلي إخضاع..

* * *

ولكن هل كل عناد هو من هذا اللون المنحرف؟!

*** ألا يوجد لون من العناد يدل علي شخصية قوية لا تلين؟**

أو نسأل : ألا يمكن أن نحوّل العناد في إنسان إلي مسار طيب. يكون لفائدته وفائدة المجتمع الذي يعيش فيه؟

وأول خطوة نقدمها للعنيد في إصلاح مساره هي:

*** وقفة عناد ضد كل عادة رديئة للوصول إلي ضبط النفس**

ولا شك أن فضيلة ضبط النفس. هي عناد مع النفس التي تريد أن تسلك حسب هواها في طريق منحرف يضرها... إبطال التدخين مثلا: ألا يحتاج إلي عناد مع النفس. في منعها عما تريده. مع تصميم في هذا المنع مهما اشتهت ومهما طلبت. ونفس الكلام نقول عن الذي يمتنع عن الخمر والمسكر. ونقوله للشاب الذي وقع في عادة رديئة ويحتاج إلي القيام منها بعناد شديد مع شهواته.

* * *

* كذلك كل أصحاب المبادىء والقيم وإصرارهم علي نشرهم. تحول عندهم العناد إلي تصميم وصمود وثبات...

وينطبق هذا أيضا علي أصحاب الرسالات. وعلي المصلحين الذين غيروا صورة المجتمع في أيامهم. في كفاح مستمر. واقفين في صلابة. كما قال الشاعر:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً :. إن الحياة عقيدة وجهاد.

* وهكذا كل الذين قاموا بثورات اجتماعية خطيرة:

لو أن عنادهم قد قُهر في أوله. ما كانوا قد قاموا بشيء.. ولكنهم صمدوا ثابتين. محتملين كل صنوف المقاومة. حتي انتصروا أخيراً. وصاروا من أبطال التاريخ.

* * *

*** ينطبق هذا أيضا علي الشهداء من كل نوع وفي كل جيل**

ولعل في مقدمتهم أبطال الإيمان الذين قاوموا الوثنية ووقفوا في صمود شديد أمام الأباطرة القساة. وأمام كل أنواع التهديد والتعذيب والإغراء. في عناد شديد ضد عبادة الأصنام. وحاول الولاة والقضاة ومنفذو الأحكام أن يثنوهم عن الثبات في الإيمان الذي أسموه وقتذاك عناداً. كما أنهم في عناد أيضا رفضوا كل الإغراءات المعروضة عليهم. وانتهي بهم الأمر أن قدموا رؤوسهم للسيف. وصاروا شهداء.

وكم قد القوا من قبل في السجن. وجلدوا مراراً. ولكنهم لم يتزحزحوا عن الإيمان. بل ظلوا هكذا صامدين. بلا تراخ. ولا تساهل. ولا خوف.. لو لم يكن العناد عندهم. قد اتخذ هذه الصورة الإيمانية. ما كان التاريخ قد سجل أسماءهم بحروف من نور.

* * *

*** هناك أيضا عناد في مقابلة حروب الشياطين**

عناد مع النفس في الجهاد الروحي: في الصوم. وحفظ العفة. وحفظ الفكر والحواس. وضبط اللسان. وضبط الأعصاب.

وتغريه نفسه أن يرد الكلمة بكلمتين. والصاع بصاعين. ولكنه يعاند نفسه. ويرفض مشورتها. ويضبط أعصابه. ويقدّم مثالاً في الصبر وفي الاحتمال ومجاهدة النفس.

الشيطان يحجم عوده. فيجده إنساناً صلباً قوياً. لا يلين. يجده جنة مغلقة لا تفتح بابها لأحد الشياطين. بل تقابل إغراءاته بعناد مقدس يرفض التفاوض مع حوارات الشياطين.

* * *

* هذا العناد ينفع الإنسان البار. إذ وُجد في مجتمع فاسد:

يحاول الفاسدون أن يجروه معهم كل منهم في مجال. لكي يكون واحداً منهم. يتعلم أساليبهم. ويشترك في فسادهم. ويتستر عليه. ولكنه بكل عناد. لا يستجيب لهم. ولا ينضم إليهم. بل يرونه كصخرة صلبة. كالجنادل الستة في مجري النيل.

ينبغي أن نعلّم أولادنا ألا يكونوا عجينة لينة أمام الفساد المنتشر. يشكلها كما يشاء. ونعلّمهم أن الطيبة ليس معناها أن ينساقوا في التيار. بل أن يعاندوا مهما لاقوا من نقد واستهزاء.

* * *

*** وإن وجدنا عناداً صادراً عن إرادة قوية. لا نحطمه. بل نوجه تلك الإرادة نحو الخير**

نصلح مساره. دون أن نعترض طريقه ونمنعه من المسير. نتركه يتجه نحو الخير بنفس القوة. فنستفيد منها.. وينتفع نفس الشخص. فلا يخطيء. ويعمل دون أن نحاربه بالإحباط.

* * *

*** ننتقل إلي نقطة أخري. وهي الغضب بين الخطأ والصواب**

الغضب طاقة. والغضوب كثيراً ما يكون مكروها يتجنبه الناس.

فهل كلما وجدنا طاقة غضبية. نحاربها ونحطمها؟ كلا. بلا شك.

فالغضب طاقة يمكن استخدامها في الخير. مع تنقيتها من الخطأ. وتصحيح مسارها وهدفها ووسيلتها.

لولا الطاقة الغضبية. ما ثارت الشعوب ضد الاحتلال وضد الاستعمار. وطردته واستعادت حريتها.

ولولا الطاقة الغضبية. ما ثار الناس ضد الفساد. وطهروا الأرض منه. ولولا الطاقة الغضبية. لبقي القوي مستعبداً للضعيف. وبقي الظالم رازخاً فوق رقبة المظلوم..!

إذن ما الحل؟ وما موقفنا من الطاقة الغضبية؟

* * *

* الطاقة الغضبية يكون لها أحياناً أخطاؤها. نتعرف عليها ونصححها.

فالطاقة الغضبية قد تنحرف من الناحية الجسدية والناحية النفسية.

الغضب ينحرف جسدياً إذا تحوّل إلي نرفزة. وكلمة نرفزة من Nerves .

أي أعصاب. فيصير الشخص في غضبه عصبياً. تتوتر أعصابه وتثور. ويعلو صوته. ويأخذ مظهر الهياج. وعدم انضباط الملامح والحركات. مع أخطاء اللسان. وعنف وقساوة الألفاظ.

والغضب يخطيء نفسياً. من حيث الغيظ والكراهية. والرغبة في الانتقام للنفس. وثورة القلب والفكر بأسلوب غير روحي. وربما يصل إلي أسلوب الشتائم. وجرح إحساس الآخرين. وقد يصل إلي مستوي الاعتداء والرغبة في القتل.

في كل هذا تكون الطاقة الغضبية قد انحرفت.

* * *

* ولكن ليس معني ذلك أن نقاوم الطاقة الغضبية باستمرار ونحطمها. وإلا فإننا نعمل علي إيجاد جيل خانع مستكين خامل.

فالطاقة الغضبية في مسارها السليم. ينتج عنها الحماس والنخوة والرجولة. والغيرة المقدسة. والقيام لمساعدة المقهورين والمظلومين. والدفاع عن الوطن. وعن كل الذين ليس لهم من يدافع عنهم.

والإنسان الروحي لا يستطيع أن يري الشر أمامه. دون أن يتحرك قلبه. فإن تحرك قلبه وضميره أيضا. وغضب... ماذا يفعل حينئذ؟

* * *

*** يمكن أن يغضب ولا يخطيء. من جهة هدف الغضب ووسيلته**

فينبغي أن يكون الهدف سليماً. لأن كثيرين يغضبون. فإن بحثت عن سبب غضبهم. تجده لا يستحق كل ذلك الغضب. بل قد تجدهم مخطئين لم يفحصوا الأمر ولم يتحققوا. وربما كانوا ظالمين وقساة!

أما من جهة الوسيلة: فإن كان الإنسان من حقه أن يغضب. فيجب أنه في غضبه لا يتجاوز حدوده. ولا ينساب لسانه أو قلمه بغير انضباط وبأسلوب خارج عن الأدب أو عن اللياقة.

وهكذا لا نكون قد حطمنا الطاقة الغضبية. ولا تركناها في تسيب خاطيء. بل هذبنا مسيرتها.

* * *

ويقول رجال الأدب والفكر. تعليقاً علي الذين يغضبون. مبررين غضبهم بأنه من أجل الحق. لكي يأخذوا حق الله من المخطئين!

* يقولون لهم: خذوا حق الله من أنفسكم. قبل أن تأخذوه من الناس!

وكما يقول المثل: من كان بيته من زجاج. لا يقذف الناس بالحجارة. وكما قال السيد المسيح لمن أرادوا رجم المرأة الخاطئة: "من كان منكم بلا خطية. فليقذفها بأول حجر"

وكما قال الشاعر فؤاد بليبل عن مثل تلك المرأة الخاطئة:

أسألتِ من نبذوك نبذ المنكر :. كم بينهم من فاجري متستّر

أدعوكِ بائعة الأثيم من الهوي :. كذبوا فإن الذنب ذنب المشتري

* * *

*** مثال آخر نذكره وهو محبة الذات**

كثيراً ما يهاجم البعض الإنسان المحب لذاته. فهل محبة الذات خطيئة. وعملياً مَنْ مِنْ الناس لا يحب ذاته ويتمني لها كل خير؟!

فهل نحطم تلك الطاقة الطبيعية التي هي محبة النفس ولن نستطيع تحطيمها! أم نفسر معناها. ونصحح مسارها.

* تعتبر محبة الذات خطيئة. إذا تحولت إلي لون من الأنانية. أو كانت بإهمال الآخرين. أو تجد راحتها في تعب الآخرين!

أما إن كان الإنسان يحب غيره كنفسه. ويسعي إلي سعادة وراحة الآخرين كما يسعي إلي راحته وسعادته. فلا يكون أبداً قد أخطأ.. كذلك إذا كان يرتفع. ويرفع الآخرين معه.

* * *

* أيضا لا يجوز أن الإنسان يحب ذاته بطريقة تضرها!

مثال ذلك إنسان ينطق أنه يحب ذاته. بأن يغرقها في شهوات العالم وملاذه! ومهما اشتهته عيناه لا يمنعه عنهما! أو شخص آخر في محبته لذاته يريد أن يوصلها إلي رغباتها بطريقة سليمة أو غير شرعية. فالذين يلجأون إلي النصب والاحتيال. للوصول إلي مال أو مركز. لا شك يدعون أنهم يحبون أنفسهم! بينما هي بلا شك محبة ضارة بأنفسهم وبغيرهم.

إن الذي يحب ذاته محبة حقيقية. عليه أن يتدرب أولاً علي انكار الذات. وبهذا يصل إلي نقاوة الذات ورفعتها. ويكون محباً لذاته محبة حقيقية.

* * *

*** نحن لا نستطيع أن نمنع أحداً من أن يحب ذاته ولكن لا يكون ذلك عن طريق الكبرياء والخيلاء**

فالذي يعجب بذاته. والذي يمشي في الأرض مرحاً. والذي يكلم الناس من فوق. هذا يضر ذاته. ولا يجعلها محبوبة من الناس.. ويكون قد سلك طريقاً لا يوصل.

* * *

نفس الكلام عن كثير من المواهب. كالفن مثلاً

إنسان يهوي التمثيل. وقد ينبغ فيه. فلا نحطمه ولا نقول له عن كل ألوان الفن أنها حرام. إنما نعلّمه كيف يسلك في هوايته دون أن يخطيء.. فهناك فرق تمثيلية تمجد الله. وتخرج تمثيليات كل خير. ولا خطأ فيها.